النفحة الثانية والعشرون: معالم الأخلاق في رَمَضَانَ

إلى مدرسة الأخلاق المحمدية أيها الصائمون الكرام، حيث يحاضرنا فيها رسول الله ﷺ تعالوا لنرفع الستار عن الأخلاق الإسلامية، التي يعجز عباقرة العصر الحديث عن بلوغ أعتابها، أخلاق رسم ملامحها القرآن، وحدَّ أطرها وعالجها وطبقها عملياً رسول الأنام ﷺ حتى أصبحت من أبرز ما تميّز به هذا الدين.

ونحن إذ ندخل مراتع الأخلاق، ونتجول في رياضه، يؤسفنا ما تعانيه أمتنا اليوم من أزمة أخلاقية قد استحكمت حلقاتها، حتى أصبحنا بأمس الحاجة إلى الخلق السامي في شتَّى ميادين الحياة وعلى كافة المستويات، نعم إننا بحاجة ملحة في هذه الظروف لعودة رشيدة إلى أخلاقنا التي تكاد أن تندثر وتتلاشى، في خضم هذه الأمواج المادية العاتية، التي جرفت معها كل نبيل، وهشمت كل فضيلة ومروءة.

ولنبدأ بأخلاق سيد المرسلين ﷺ، أورد الإمام الطبري في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: 199] لما نزلت هذه الآية: قال رسول الله ﷺ: «يا جِبْرِيلُ ما هَذَا»؟ قال: ما أدري حتى أسأل العالِم، قال: ثم قال جبريل: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك[1].

خصال ثلاث من جملة ما أدَّب الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ:

1 أن تصل مَن قطعك.

2 وتعطي مَن حرمك.

(1) جامع البيان، للطبري 9/ 104.

3 **وتعفو عمَّن ظلمك.**

وهذه صفات يتسنَّى لكل إنسان أن يتخلق بها، وذلك لما أودع الحق ﷻ في كيان البشر من المقومات الرتيبة التي من شأنها أن تتفاعل مع مثل هذه المزايا، ومن ثَمَّ فإن التحقق بها ليس بالأمر العسير...

لكن أرأيتم لو أن إنساناً أوتي قوة وسلطاناً وحكماً وجيشاً؛ ثم قطعه وأعرض عنه أقرب الناس إليه، وحرمه وهضمه حقه الناس، وظلموه وعذبوه في ساعة العسرة قبل أن يصل إلى ما وصل إليه، أفيجازيهم بما أنزلوا به من سوء وعذاب وتنكيل خيراً؟ وقد غدا عظيماً أو حاكماً؟ لا شك أن الواقع المرئي يجيب جواباً صارخاً ومؤلماً، لا.

لكن الحبيب ﷺ تخلق بها من قبل ومن بعد، وإليكم الأدلة العملية التي تقرر ذلك بجلاء، وتصور لنا كيف عفا عمن ظلمه وعمن حاول قتله.

◻ أولاً: ثمامة بن أثال:

وقد جاءت قصته في السير والمغازي، ذكرها ابن إسحاق في السيرة، وابن القيم في زاد المعاد، والبخاري في المغازي، ومسلم في الجهاد، وقصته كانت قبل فتح مكة لما أسلم ثم قدم مكة معتمراً، وقد كان المشركون قبل البعثة يحجون ويزورون البيت لكن على الطريقة الشركية، وبينما كان في الطريق قريباً من المدينة إذا به يقابل سرية من سرايا رسول الله ﷺ فأسرته وهي لاتعرف أنه ثمامة، فوقع أسيراً في يد المسلمين، فأتوا به إلى المدينة وربطوه بسارية من سواري المسجد، منتظرين أن يقف النبي ﷺ بنفسه على شأن الأسير الجديد، وأن يأمر فيه بأمره، ولما خرج النبي ﷺ إلى المسجد وهمّ بالدخول، إذا به يفاجئ بثمامة بن أثال مربوطاً في السارية، فقال للصحابة ممن حوله: «**أتدرون مَن أخذتم**»؟ قالوا: لا يا رسول الله، فقال: «**هذا ثمامة بن أثال الحنفي فأحسنوا أساره**»، ثم رجع النبي ﷺ إلى أهله وقال: «**اجمعوا ما عندكم من طعام وابعثوا به إلى ثمامة بن أثال**»، ثم أمر بناقته أن تحلب له في الغدو والرواح وأن يقدّم إليه لبنها، وقد تم ذلك كله قبل

أن يكلمه الرسول ﷺ.

ثم إن النبي ﷺ أقبل على ثمامة يريد أن يستدرجه إلى الإسلام وقال: «**ما عندك يا ثمامة**»؟ فقال: عندي يا محمد خير، فإن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دمٍ ـ أي تقتل رجلاً أراق منكم دماً ـ وإن تُنعِم تُنعِم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تُعْطَ منه ما شئت، فتركه الرسول ﷺ يومين على حاله، يؤتى إليه بالطعام والشراب، ويحمل إليه لبن الناقة، ثم جاءه فقال: «**ما عندك يا ثمامة**»؟ فقال: ليس عندي إلّا ما قلت لك من قبل، فإن تُنعم تُنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال، فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى إذا كان اليوم التالي جاءه فقال: «**ما عندك يا ثمامة**»؟ فقال: عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال أعطيتك منه ما تشاء.

فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه وقال: «**أطلقوا ثمامة**»، ففكوا وثاقه وأطلقوه، فغادر ثمامة مسجد رسول الله ﷺ ومضى، حتى إذا بلغ نخلاً في حواشي المدينة قريباً من البقيع فيه ماء أناخ راحلته عنده، وتطهر من مائه فأحسن طُهوره، ثم عاد أدراجه إلى المسجد، فما إن بلغه حتى وقف على ملأ من المسلمين وقال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمد عبده ورسوله، ثم اتجه إلى الرسول ﷺ وقال: يا محمد واللّه ما كان على ظهر الأرض وجهٌ أبغض إليّ من وجهك، وقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، ووالله ما كان دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدين كله إليَّ، ووالله ما كان بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ.

ثم أردف قائلاً: لقد كنتُ أصبت في أصحابك دماً، فما الذي توجبه عليّ؟ فقال ﷺ: «**لا تثريب عليك يا ثمامة، فإن الإسلام يجبّ ما قبله**»، وبشَّرَه رسول الله ﷺ بالخير الذي كتبه الله له بإسلامه، فانبسطت أسارير ثمامة وقال: واللّه لأصيبنّ من المشركين أضعاف ما أصبت من أصحابك، ولأضعنّ نفسي وسيفي ومن معي في نصرتك ونصرة دينك، ثم قال: يا رسول الله إن خيلك

أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى أن أفعل؟ فقال ﷺ: «**امض لأداء عمرتك، ولكن على شرعة الله ورسوله**»، وعلمه ما يقوم به من المناسك.

مضى ثمامة إلى غايته حتى إذا بلغ بطن مكة رفع صوته بالتلبية قائلاً: لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، فكان أول مسلم على ظهر الأرض دخل مكة ملبياً، وما أن سمعت قريش صوت التلبية حتى هبت مغضبة واستلت السيوف من أغمادها لتبطش بهذا الذي جاهر بمخالفة دينها في عقر دارها، ولما أقبلوا عليه رفع صوته بالتلبية، فهمّ فتى من فتيان قريش أن يرميه بسهم، ولكن كبار القوم أخذوا على يديه وقالوا: ويحك أتعلم من هذا؟ إنه ثمامة بن أثال ملك اليمامة، وإنكم إن أصبتموه بسوء قطع قومه عنا الميرة.

ثم أقبلوا إليه بعد أن أعادوا السيوف إلى أغمادها وقالوا: ما بك ياثمامة؟ أصبوت وتركت دينك ودين آبائك؟ فقال: ما صبوت، ولكني اتبعت خير دين، اتبعت دين محمد ﷺ ثم أردف يقول، أقسم برب هذا البيت، إنه لايصلكم بعد عودتي إلى اليمامة حبةٌ من قمحها أو شيء من خيراتها حتى تتبعوا دين محمد عن آخركم[1].

وأترك هذا المشهد الذي يتألق خُلُقاً ونوراً، وأنتقل إلى مشهد آخر يشعشع كذلك بأنوار الهدى والرقي، ويجسد لنا الصورة الحية التي كان يعيشها الحبيب ﷺ من خلق سام في معاملة من أراد قتله والغدر به...

❑ ثانياً: عمير بن وهب:

روى أصحاب السير أن عمير بن وهب ذات يوم جلس مع ابن عمه صفوان ابن أمية، وكان حقد صفوان على المسلمين كبيراً، فقد قتل أباه أمية بن خلف في بدر، فقال صفوان وهو يتذكر قتلى بدر: واللَّه ما في العيش بعدهم خير، فقال له عمير: صدقت، ووالله لولا دَيْن عليّ لا أملك قضاءه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن لي عنده عِلّة أعتَلّ بها عليه: أقول قدمت

(1) أسد الغابة 1/ 246، والإصابة 1/ 203.

من أجل ابني هذا الأسير، فاغتنمها صفوان وقال: عليّ دَيْنك، أنا أقضيه عنك، وعيالُك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، فقال له عمير: إذن فاكتم شأني وشأنك، ثم أمر عمير بسيفه فشُحذ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة.

وبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، إذ نظر عمر فرأى عمير بن وهب قد أناخ راحلته على باب المسجد متوشحاً سيفه، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلّا لشر، فهو الذي حرّش بيننا وحَزَرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على الرسول ﷺ فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء مُتَوشحاً سيفه، قال الرسول ﷺ: **«أدخله عليّ»**، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عُنُقه، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، فأقبل الفاروق على عمير بن وهب وأخذ بتلابيبه، وطوق عنقه بحمالة سيفه، ومضى به نحو رسول الله ﷺ فلما رآه النبي ﷺ على هذه الحال، قال لعمر: **«أطلقه يا عمر»**، فأطلقه، ثم قال له: **«استأخر عنه»**، ثم توجه إلى عمير بن وهب وقال: **«ادن يا عمير»**، فدنا وقال: أنعم صباحاً، وهي تحية العرب في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: **«لقد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، لقد أكرمنا الله بالسلام، وهو تحية أهل الجنة»**.

وقال عمير: والله ما أنت ببعيد عن تحيتنا، وإنك بها لحديث عهد، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: **«وما الذي جاء بك يا عمير»**؟! قال: جئت أرجو فكاك هذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا إلي فيه، **«قال: فما بال السيف الذي في عنقك»**؟! قال: قبحها الله من سيوف... وهل أغنت عنا شيئاً يوم بدر؟!! قال: **«اصدقني ما الذي جئت له يا عمير»**؟ قال: ما جئت إلّا لذاك.

قال: **«بل قعدت أنت وصفوان بن أمية عند الحجر، فتذاكرتما أصحاب القليب من صرعى قريش ثم قلت: لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً... فتحمل لك صفوان بن أمية دينك وعيالك على أن تقتلني... والله حائل بينك وبين ذلك»**.

فذهل عمير لحظة، ثم ما لبث أن قال: أشهد أنك لرسول الله، ثم أردف يقول: لقد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، لكن خبري مع صفوان بن أمية لم يعلم به أحد إلّا أنا وهو... ووالله لقد أيقنت أنه ما أتاك به إلّا الله... فالحمد لله الذي ساقني إليك سوقاً، ليهديني إلى الإسلام، ثم شهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله وأسلم، فقال ﷺ لأصحابه: «**فقهوا أخاكم في دينه، وعلّموه القرآن، وأطلقوا أسيره**»[1].

أيها الصائمون الأكارم:

لو أردنا أن نسوق الشواهد والصور من حياة النبي خير البشر ﷺ، والتي تدل على مكارم خلقه في معاملة عدوه فضلاً عن معاملة أهله وصحبه لضاق المقام ثم ضاق، ولكن بوسعنا أن نعلم بأن الأخلاق هي ثمرة من ثمار الإيمان، تتألّق بهاءً وحبوراً كلما زاد الإيمان، وتزداد نصوعاً كلّما رسخ في القلب حب الله ورسوله ﷺ، لأن الخلق هو أساس التعامل بين الناس، وهو المعيار الدقيق لارتقاء الأمم، وهو الدافع الحي لنهضة الدول وازدهارها.

وهل أنزل الحقّ تبارك وتعالى الكتب، وأرسل الرسل إلّا ليكونوا دعاة إلى مكارم الأخلاق ومحامد الأفعال.

وهذه أمنا عائشة رضي الله عنها تصف لنا خلق رسول الله ﷺ فتقول: (كان خلقه القرآن)[2].

وعنها رضي الله عنها أنها قالت: (ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلّا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعدَ الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلّا أن تنتهكَ حرمة الله فينتقم لله بها)[3].

---

(1) صور من حياة الصحابة، ص44، وانظر: الإصابة 2 / 181، والبداية والنهاية 8 / 23، وسير أعلام النبلاء 2 / 405، 408.

(2) رواه أحمد في مسنده، 6/ 216، 25855)، وغيره.

(3) رواه البخاري، 3/ 1306، رقم: (3367).

ويروي البخاري وغيره عن أنس بن مالك ﷺ قال: (ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألينُ من كفِّ النَّبي ﷺ، ولا شممتُ ريحاً قط أو عَرَفاً قط أطيب من ريح أو عرف النبي ﷺ)[1].

وفي رواية لمسلم يقول أنس ﷺ: (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أف قط، ولا قال لي لشيء لم فعلتَ كذا وهلا فعلتَ كذا)[2].

واعلم أخي المسلـم:

أن حسن الخلق سبب لدخول الجنة، روى الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «**تقوى الله وحسن الخلق**»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «**الفم والفرج**»[3].

واعلم أخي الصائـم:

أن حسن الخلق يزيد في درجاتك لتصل إلى درجة الصائم القائم، فعن عائشة ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»[4].

ثم اعلم يا أيها الحبيب:

أنك بحسن خلقك تحشر يوم القيامة بجانب النبي ﷺ في أعلى الجنان، قال رسول الله ﷺ: «**إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة، أسؤكم أخلاقاً، المتشدقون المتفيهقون الثرثارون**»[5].

---

(1) رواه البخاري، 3/ 1306، رقم: (3368).

(2) رواه مسلم، 4/ 1804، رقم: (2309).

(3) رواه الترمذي، 4/ 363، رقم: (2004)، وقال: هذا حديث صحيح غريب.

(4) الحاكم في المستدرك، 1/ 128، رقم: (199)، وصححه.

(5) صحيح ابن حبان، 12/ 368، رقم: (5557)، وغيره.

أيهـــا الأحبـــاب:

بهذه الأخلاق السامية تحلَّى سلفنا الصالح، واستطاعوا أن يبرهنوا للعالم أن الإسلام ليس ديناً مثالياً قابعاً في أدمغة المفكرين وبطون الكتب، إنما هو خلق في القول والعمل...

إذا نظرنا إلى واقعنا اليوم وفتَّشنا عن الأخلاق فأين نجدها؟ أنجد الأخلاق عند أولئك الذين استباحوا الأعراض وسفكوا الدماء وزهقوا الأرواح، واستعمروا البلدان، ومزَّقوا الأمم، واضطهدوا الشعوب، وسلبوا الخيرات والحقوق؟

أم نجد الأخلاق في دول تعلن رسمياً إباحة الشذوذ الجنسي، وتفتخر بذلك وتعتبره حضارة ورقياً؟

أم نجد الأخلاق في الطغيان المادي، الذي قضى على القيم الرفيعة، وأجهز على المبادئ السامية، ومع كل أسف فإن جمهرة كبيرة من بني جلدتنا انساقوا من غير بصيرة وراء التحلل الخلقي والنزعة المادية الصرفة، التي سقط في رحاها الغرب دونما منقذ، فهجر كثير من المسلمين أخلاقهم وثقافتهم وأصالتهم، واستعاضوا عنها أخلاقاً مستوردة مسعورة من جحيم الغرب ولظى شهواته، فأصبح كلامنا وسلوكنا ولباسنا وطعامنا غربياً غربياً...

وفي هذا السياق يا سادة:

حري بنا أن نتذكر أن أكثر الأجناس سعياً في دمار الأخلاق وإفسادها إنما هم اليهود، اليهود يسعون دائماً لنشر الفساد والتحلل الأخلاقي بين الأمم حتى يسهل عليهم تدميرهم والسطو على مقدراتهم.

إنهم لا يتورَّعون عن استخدام أرخص الوسائل لتحقيق أغراضهم الخبيثة وأهدافهم الماكرة، فالمرأة مثلاً يفسدونها ويغرونها للانطلاق في ساحات وخانات الفساد، حتى إذا وقعت في شباكهم وشراكهم، وخرجت من بيتها وانخلعت من عفتها، وتمردت على أخلاقها وآدابها الشرعية، استغلوها أبشع استغلال للفساد الخلقي، فقد استطاعوا أن يدفعوا المرأة على شاشات التلفاز وأغلفة الصحف

والمجلات، ومواقع الإنترنت التي لا حصر لها شبه عارية أو عارية، أظهروها متجردة من الحشمة والخلق والحياء!!!

ولا نريد أن نسترسل في ذكر جرائمهم، فالجميع يعلمها بل ويشاهدها، ولكن علينا أن نحصن أنفسنا وشبابنا وفتياتنا وأمتنا منهم، ومن كل دواعي التحلل والإباحية المحمومة.

أخي المسلـــم:

إن الأخلاق منها ما هو جبلة، ومنها ما هو مكتـسب، فإن كنت ممن أكرمهم الله بخلق حسن منذ نشأتك، فاحمد الله تعالى، وعزز وجوده فيك بتعاليم الهدى، وإلا فالإنسان قابل للتعديل والتقويم، لأن الأخلاق غرائز كامنة تظهر بالاختيار، وتقهر بالاضطرار.

فعلى المسلم المجاهدة في تهذيب أخلاقه وتقويمها، لأنه كما هو معلوم أن العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، والخلق بالتخلق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[1]: لكل بنيان أساس، وأساس الإسلام حسن الخلق.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد، ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد.

وقال عطاء رحمه الله تعالى: ما ارتفع من ارتفع إلّا بحسن الخلق.

وقيل للقمان: ممن تعلمت الأدب؟ قال: من قليل الأدب، وذلك كلما رأيت أحدهم ساء التصرف في أمر من الأمور اجتنبت فعله حتى الأبد.

وقال الشاعر:

واحذر مساوئ أخلاق تُشان بها أسوأ السوء سوء الخلق والبَخَلِ

وقال آخر:

لو أنني خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق

(1) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، 3/ 79.

وقال آخر:

وكم من فتى أزرى به سوء خلقه فأصبح مذموماً قليل المحامد

والحمد لله رب العالمين.

obeikandl.com